لماذا يستفز ابن الطائفة الإخوانية من مشروعات التشييد وبناء الكباري؟!!

سخط وسخرية الإعلام الناطق بلسان جماعة الإخوان المسلمين الإرهابية ويبث من قطر وتركيا، وكذلك سخط وسخرية لجانها الألكترونية التي يوظفون لها عناصر جهادية من دول وجنسيات مختلفة على مواقع التواصل الاجتماعي، كله يصب في خانة الجهود المكرسة للحط من شأن المشروعات التحديثية التي تقوم بها الدولة المصرية في كل القطاعات، من مشروع شرق الدلتا شمالا حتى مشروع وادي توشكى جنوبا مرورا بمشروع العاصمة الإدارية، وفيما بينها آلاف المشروعات الأخرى - وتقدير الآلاف لا يتضمن مبالغة -.

لكن الملاحظة اللافتة في هجمتهم الإعلامية التي لها صفة الدوام والاستمرارية تلك، وعلى نحو يستحيل ألا يكون قد لاحظه معظم المصريين، هو حرصهم الدائم على أن يخصوا تشييد الكباري بالذات بأكبر قدر من الازدراء والسخرية. تلك الملحوظة تمتد لتغطي كذلك حملاتهم المسمومة على مشروعات الدولة في كل العهود السابقة، كعهد الرئيسين مبارك والسادات، وفي عهد الرئيس عبدالناصر بكل تأكيد. وهو ما يدفع إلى التساؤل عن وجود دوافع كامنة أو مستترة وراء هجوم الجماعة المستمر على مشاريع التشييد التي تقوم بها الدولة المصرية في كل العهود، إذ ليس في وسع عاقل أن يتصور أن مشروعات تنموية وتحديثية عملاقة تقوم بها الدولة يمكن أن تستفز سخطا أو غضبا أو معارضة، إلا من جهة عدو متأصل في العداء للمصريين!.

سؤال كهذا قد يبدو في نظر البعض عابثا أو دعائيا، لكنه ليس كذلك لو حاولت الحصول على الإجابة الصحيحة وليس مجرد إجابة سطحية له، فهجوم الجماعة بكل قوتها على مشاريع التحديث ليس غير جانب محوري من جوانب مشروعها الفكري الظلامي، وهو مشروع يستهدف العودة بمصر - والبلدان العربية عموما - إلى وضعها القديم خلال عصور التخلف والظلام. وتحديدا لزمن السلطان العثماني الذي كانت بلداننا فيه ولايات طرفية هامشية تتبع سلطنة أسطنبول، في تلك الآونة المظلمة كانت مشروعات التشييد المدني والصناعي التحديثي وبناء الجسور العملاقة، قاصرة فقط على عاصمة الامبراطورية (الخلافة) في أسطنبول. لذلك لا يستثير تشييد المشروعات وبناء الجسور العملاقة عناصر الجماعة الإخوانية في عاصمة خلافتهم مثلا، تستثير حقدهم وسخطهم فقط عندما تكون في المدن المصرية والعربية!.

غير أن هناك أسبابا أكثر عمقا وارتباطا ببنية الجماعة الفكرية والتنظيمية الطائفية - من هذا السبب العام - تبرر تهجمها الدائم على مشروعات التحديث والبناء في مصر. وهي أسباب يمكنك أن تكتشفها من قراءة كتاب «مصر المدنية» للمؤرخ المصري الكبير د.«يونان لبيب رزق». كتاب على صغر حجمه يمتاز بمنهجية تاريخية منضبطة وعلمية دقيقة، ويؤرخ لميلاد المجتمع المصري المدني الحديث بالمواكبة مع تأسيس الباشا «محمد علي الكبير» للدولة والجيش المصري. مقولة الكتاب الأساسية هي استحالة وجود أي ممكنات تاريخية لوجود مجتمع أو مجتمعات طائفية في مصر، فهو يؤكد: «القول بوجود طائفية في مصر في الربع الأخير من القرن العشرين أمر يجافي كل الحقائق التاريخية المعروفة، فالطائفية كانت قد اختفت تماما من مصر خلال القرن السابق (التاسع عشر). الطائفية بمعناها السياسي كانت قد أخذت في الاندثار بعد بناء الدولة المركزية في مصر على أيدي محمد علي الأمر الذي آخذ معه دور شيوخ الطوائف في التآكل تماما، ومع مرور الوقت حدث التحول في وضعية المصري من «ابن للطائفة» إلى «رعية» للحكومة السنية».

«الحكومة السنية» كان لقب الحكومات الخديوية في مصر ما قبل ثورة ١٩٥٢ وبعدها تحولت مصر إلى جمهورية، والمصري إلى مواطن في دولة مدنية ومجتمع مصري حديث أو على الأقل في طريقهما التاريخي إلى تحقيق ذلك. لكن مشروع الجماعة الإخوانية الطائفية الذي يهدف للعودة بمصر إلى وضعها ما قبل أكثر من قرنين من الزمان ظل كما هو: أن يعود المصري من مواطن في جمهورية، ومن ابن لدولة ومجتمع مدني حديث إلى «ابن للطائفة». ومن هنا تتضح صلة المشروعات التحديثية للدولة المصرية في كل المجالات بالتقدم لمسافات أبعد عن الهدف الظلامي للجماعة بتخلفه التاريخي وتبعيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمركز العثمانلي. تلك المشروعات تتهدد الجماعة بصفة مستمرة بالابتعاد بالمصريين عن علاقات وتكوينات القرون الوسطى الاجتماعية الطائفية، وبالوصول بها لوضع «مصر المدنية» الحديث والمتطور وغير القابل للسير بعكس اتجاه التاريخ.

ارتباط المدنية المصرية بمشروعات البناء والتشييد والتوسع العمراني ملمح أساسي يرصده كتاب المؤرخ «يونان لبيب رزق» فيقول: «ثم إن تزايد حجم المدن المصرية خلال القرن التاسع عشر على نحو غير مسبوق إلى حد أن تعداد مدينة القاهرة قد زاد عن نصف المليون أواخر القرن التاسع عشر، وضع الطوائف في موضع العجز الكامل عن ملاحقة التغييرات أو الاحتفاظ باحتكاراتها القديمة» ويقول: «ظهور المدينة الحديثة في مصر على هذا النحو المغاير أدى إلى حصار النظام الطائفي القديم ثم إلى تصفيته، وهو حصار امتد إلى الطوائف الحرفية ثم إلى الطوائف العرقية، وأخيرا إلى الطوائف الدينية».

ويؤرخ كتاب «مصر المدنية» لتصفية الطائفية في مصر بالأرقام وبالأمثلة في القطاعات المختلفة، من القطاع الحرفي: ويضرب له مثلا باختفاء طائفة العطارين مع ظهور الصيادلة والصيدليات، إلى القطاع العرقي: ويضرب له مثلا بتلاشي طائفة المغاربة الذين كانوا يعملون في مصر وذوبانهم في النسيج المصري، إلى القطاع الديني: ممثلا باختفاء حارات اليهود والنصارى مع تحول ابنائها إلى جزء من النسيج الطبقي للمجتمع المصري، ليصل إلى أن: «دفن النظام الطائفي وليد الظروف التاريخية للعصور الوسطى، وهي ظروف غير قابلة لإعادة الخروج من الأكفان».

بالطبع لا يرى أو يعترف «ابن الطائفة» الإخوانية، وهو سجين هلوسة الجماعة الظلامية التكفيرية بحقائق العلم والتاريخ الماثلة في الواقع أبدا، لذلك يطلق لنفسه - وتطلق له جماعته - حبل غرائزه على الغارب للنطح في جدار التاريخ بقرنيه الداميين، مستخدما كل ما تطاله يداه من أدوات التزييف والإرهاب، ونصب عينيه فقط إعادة المصريين إلى سجنهم التاريخي، وإلى سجنه الطائفي الذي دخله بقدميه مختارا أو عن طريق استغلاله عبر تجارة الدين. لكننا - ربما - لم نقدم رغم ذلك إجابة محددة على السؤال عن سر استفزاز إعلام الجماعة الطائفية من بناء الجسور (الكباري) بالذات.

الإجابة تكمن في سمة الوصل والصلة والاتصال الخاص بالجسور، وفي الدور الذي تقوم به في ربط وشد أوصال المجتمع المصري، وفي تقريب جزره المتفرقة أو القابلة للتفرق، وما تعنيه الكباري من علاقات نفسية متينة تصنع على مهل وبثبات بين المكونات الاجتماعية المختلفة على قرب المسافة فيما بينها، ناهيك عن كل أدوارها الأخرى الخدمية والصناعية. هنا يقدم لك المؤرخ المصري مادة دسمة عن التحول المدني الذي أنجزته الجسور في تاريخ مصر، وعلى مستوى قطع العلاقة بين مجتمع مصر المدنية وعزلة ماضيه الطائفي، يقول: «في القاهرة نشأ إلى جانب الأحياء القديمة أحياء جديدة في الظاهر والفجالة وشبرا والإسماعيلية حتى قصر الدوبارة، كما توسعت المدينة ناحية الغرب خاصة بعد مد الكباري، كوبري ربط الروضة بالجزيرة، وآخر ربط الروضة بالقصر العيني، وثالث ربطها بمصر القديمة».

هنا تقريبا يكمن سر السخط والاستفزاز الشديد الذي تشعر به الجماعة تجاه تشييد الكباري بالذات سواء بوعيها الفكري - أو لا وعيها التاريخي - الطائفي.

عصام الزهيري

حقيقة الصراع بين الدين والعلم

خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر ألقى البروفسور الأمريكي «أندرو ديكسون وايت» محاضرة في القاعة الكبرى لمعهد «كوبر» الأمريكي، قال فيها: «نتج عن تدخل اللاهوت الديني في العلم، في فترات العصور الحديثة، بدعوى الدفاع عن الدين، مهما كانت دوافع هذا التدخل نابعة عن ضمير حي، أفظع الشرور التي أصابت الدين والعلم على السواء، وأدت البحوث العلمية الحرة من ناحية أخرى بغض النظر عما لاح من أخطار تهدد الدين في غضون بعض مراحلها، إلى أسمى ضروب الخير لكل من العلم والدين على السواء».

لم تكن كلمات «وايت» التي انطلقت من تفرقة حاسمة بين الدين بمعناه العام واللاهوت الديني المذهبي (الأصولي) نابعة من فراغ، لكنها انطوت على اهتمام دقيق بموضوع الصراع بين الدين والعلم، بدأ مع مشاركته في تأسيس جامعة «كورنيل» الأمريكية على يد صاحبها رجل الأعمال الأمريكي «عزرا كورنيل». كان هدف تأسيس الجامعة الاهتمام بدراسة العلم البحت والتطبيقي، وتحرير الدراسات الأدبية والتاريخية من القيود والادعاءات الكاذبة والأساليب غير العلمية المعيبة. لذلك قرر المؤسسون ألا تكون الجامعة خاضعة لسلطة أي حزب سياسي أو طائفة دينية، ووضعوا شروطا مشددة بهذا المعنى في لائحة التأسيس، غير أن معارضة دينية شرسة وقاسية قادها رجال دين مشاهير بدأت في الحال، يقول «وايت»:

لم يجل في خاطر أي منا، أننا ارتكبنا بأية حال عملا لا دينيا أو عملا يتنافى مع المباديء المسيحية. كان المستر كورنيل عضوا في جمعية أصدقاء الكتاب المقدس، وكان يساعد بأمواله عن طيب خاطر ومن تلقاء نفسه في كل الجهود المسيحية حيثما عرض لها أو عرضت له، كما أنه عيّن ضمن الأعضاء المستديمين للمكتبة العامة - التي أسسها من ماله - جميع رجال الأكليروس الكاثوليك والبروتستانت في المدينة».

ماذا كانت إذن مصادر وطبيعة هذه الحملة الدينية الشعواء ضد جامعة «كورنيل» أوان تأسيسها؟

يقول «ديكسون وايت» أن أحدا لم يخطر على باله مطلقا أن يضر بالمسيحية، وعلى الضد كانت نية صاحب الجامعة والمشاركين في تأسيسها أن ينصر المسيحية ويزكيها، لكن كل ما فعلوه هو أنهم لم يخلطوا الدين بالمذهبية الطائفية، بعد أن تبينوا التأثير الخطير للسمة الطائفية الغالبة على المعاهد والجامعات الأمريكية في ضعف التعليم العالي وتخلّفه، وهو الأمر الذي عرضهم لحملة التكفير الشعواء، ولاتهام الجامعة الأمريكية بأنها تروج للكفر والإلحاد. كانت حملة هوجاء تتصف برعونة لم تزدها محاولات التهدئة والنقاش والتفنيد العقلاني من طرف مؤسسي الجامعة إلا اشتعالا. وعندئذ تبينت الصعوبة الحقيقية وهي وجود تنافر بين وجهة النظر الدينية اللاهوتية ووجهة النظر العلمية الحديثة في الكون، ومن ثم اتضحت وجوه التنافر بين التعليم المرتبط بكل منهما. من هنا أيضا بدأ اهتمام «ديكسون وايت» الفكري الطويل بتعمق الخلاف، وهو الاهتمام الذي نتج عنه خروج كتابه الموسوعي «تاريخ الصراع بين العلم واللاهوت في المسيحية» إلى النور.

وجهة النظر التي يؤكدها البروفسور الأمريكي في كتابه النفيس أن الصراع لم يكن في وجهه الحقيقي بين الدين والعلم. وهو يقصد الدين بمعناه الجوهري الذي يعني الإيمان بوجود خالق راع للكون حريص على هداية البشر عن طريق الرسل والوحي. وقد كتب «ديكسون وايت» كتابه بعد أن حسمت نتيجة المعركة في واقع البحث العلمي الأمريكي فعلا، وبعد أن انتقلت السيطرة على التعليم العام والعالي في أمريكا - وغيرها من بلدان أوروبا كذلك - من أيدي رجال الدين إلى العلماء والتربويين العلمانيين، وهو ما فتح الباب واسعا للنهضة العلمية والتعليمية في مدارس أوروبا وأمريكا. من ثم تحول هدف نشر الكتاب من إحداث تطور في معاهد وجامعات التعليم الغربي إلى تثبيت هذا التطور، بناء على نظرة علمية وتاريخية تفض الاشتباك بين الدين والعلم، وتعتبر الصراع بينهما صراعا بين اللاهوت الديني أو الأصولية الدينية وبين مقتضيات البحث العلمي.

يقول «وايت» أنه وهو يكتب عن هذا التطور الذي حققه العلم والتعليم في أمريكا وأوروبا، لا يشعر بأي عداء تجاه رجال الدين المسيحي الأجلاء، وكثير منهم من أعز أصدقائه الذين يجّل عملهم الممتاز، لكنه من الجهة الأخرى يؤكد اعتقاده بأن رجال الدين في ميدانهم الأصلي الذي تُرك لهم وهو الإيمان، يستطيعون إذا ما كفوا عن مناوأتهم للأساليب والمناهج والنتائج البحثية العلمية، أن يؤدوا عملا من أجمل وأنبل ما قاموا به في المجتمع والتاريخ البشريين، يقول: «أؤمن إيمانا راسخا بأن العلم على الرغم من أنه انتصر بكل وضوح على اللاهوت التحكمي المبني على نصوص الكتاب المقدس وأساليب الفكر القديمة، فإنه سوف يسير في المستقبل يدا بيد مع الدين، وأنه على الرغم من أن السيطرة اللاهوتية سوف تستمر في النقصان، فإن الدين ذاته كما يتراءى لنا في قوة تسيطر على الكون - وليس نحن - يهدينا إلى الصواب، وإلى حب الله وحب جيراننا، سوف يقوى باطراد، ليس فقط في معاهد العلم الأمريكية، ولكن في العالم كله».

كتاب البروفسور الأمريكي «تاريخ الصراع بين العلم واللاهوت في المسيحية» رغم مرور أكثر من قرن وربع قرن على كتابته ونشره، هو كتاب لم يتقادم لأنه يمثل أساسا للعلاقة الحديثة بين العلم والدين، ويشرح القاعدة المتينة الثابتة التي أمكن على أساسها أن يتطور العلم والبحث والتعليم في المجتمعات الغربية المتقدمة، وهو كتاب توفرت للقاريء المصري لحسن الحظ قراءته بعد أن صدر مترجما في مصر عن «المركز القومي للترجمة». ولو كان الأمر بيدي لجعلته مقررا على طلبة المعاهد العليا والجامعات، أو نصحت المصريين كلهم بقراءته والتمعن في ما تنطوي عليه سطوره من حقائق علمية ووقائع تاريخية ثمينة. ولنصحت بقراءته على الأخص عموم المتدينين ورجال الدين الإسلامي المصريين.

عصام الزهيري